في ميزان النقد

حقوق الإنسان

بين الإسلام والغرب

بقلم

أ.د. محمود حمدي زقزوق

أستاذ الفلسفة وعميد الكلية

١ — تمهيد :

مما لا شك فيه أن موضوع حقوق الإنسان قد أصبح فى عصرنا الحاضر محور الاهتمام على مستوى العالم . وقد شهد هذا القرن صدور الإعلان العالمى لحقوق الإنسان ، وتشكلت منظمات محلية ودولية تعنى بحقوق الإنسان ، وتدافع عنها ، وتراقب ما يحدث من انتهاكات لهذه الحقوق ، وأصبح لهذه المنظمات صوت مسموع وقوى تردده وسائل الإعلام فى جميع أنحاء العالم . وعقدت الأمم المتحدة عام ١٩٩٣ مؤتمراً دولياً فى العاصمة النمساوية فيينا حول حقوق الإنسان .

والموضوع جدير بكل هذا الاهتمام . فالإنسان هو محور هذا العالم، وهو صانع الحضارة على مر العصور . ومن هنا فليس بالأمر المستغرب أن يحتل موضوع حقوق الإنسان مركز الاهتمام على كل المستويات الدولية والمحلية . فعندما خلق الله الإنسان أراد له أن يكون خليفة فى الأرض . ومن أجل ذلك زوده بالعقل ، ومنحه الحرية ، وحمله المسئولية . فالإنسان كائن لديه إرادة حرة فى مقابل بقية المخلوقات ، فهو حر فى الاختيار بين الخير والشر والحق والباطل ، والإيمان والكفر ، والعدل والظلم ، كما أنه حر فى الاختيار بين احترام كرامة الآخرين أو امتهانها ، وبتعبير آخر هو حر بين احترام حقوق الآخرين أو انتهاكها .

وقد ظهرت فى الفترة الأخيرة دراسات عديدة تعنى بموضوع حقوق الإنسان ، منها ما هو مبنى على أسس دينية ، ومنها ما هو مبنى على أسس وضعية ، ومنها ما هو خليط من هذا وذاك .

٢ — دراسة جديدة :

وفى خضم المناقشات التى تدور حول حقوق الإنسان تظهر بين الحين والآخر أصوات على مستوى محلى أو دولى تتهم الإسلام بأنه دين لا يعرف حقوقاً للإنسان ، ويثور لغط كثير فى وسائل الإعلام الغربية حول هذا الموضوع . ولا نريد هنا أن نشغل أنفسنا بما يدور على الساحة الإعلامية ، وإنما نريد أن نقصر كلامنا على واحدة من أهم الدراسات العلمية التى صدرت منذ شهور قليلة فى هذا الصدد ، وأعنى بذلك دراسة مطولة صدرت فى ألمانيا حول موضوع حقوق الإنسان فى الإسلام تحت عنوان: « فى ظل الله Im Schatten Allahs » ، وهذا هو العنوان الرئيسى للدراسة ، أما العنوان الجانبى فهو : « الإسلام وحقوق الإنسان Der Islam und die Menschenrechte » ، وقد أخذ المؤلف العنوان الرئيسى للكتاب — كما يقول — من أقوال ابن تيمية فى كتابه « السياسة الشرعية » عن السلطان الذى يصفه بأنه ظل الله فى الأرض . ومن هنا فإن الخروج عليه يعد لوناً من ألوان الكفر .

ومؤلف الكتاب هو بسام طيبى : ألمانى الجنسية ، عربى الأصل ، إسلامى الديانة ، يعمل أستاذاً للعلوم السياسية فى جامعة جوتنجن بألمانيا ، وله دراسات أخرى حول الإسلام من أهمها : « أزمة الإسلام الحديث » و « التحدى الأصولى » . والمؤلف يعرض فى كتابه الجديد — الذى يربو على أربعمائة صفحة — وجهة النظر الغربية فى موضوع حقوق الإنسان ، كما يعرض موقف الإسلام والمسلمين من هذه القضية . ويسهب المؤلف فى عرض ذلك كله فى العديد من الفصول التى يشتمل عليها الكتاب والتى تتناول قضية حقوق الإنسان وارتباطها بقضايا الشريعة الإسلامية ، ومبدأ الذاتية ، والديمقراطية ، والنظرية الكونية الإسلامية ، والتعددية الحضارية ، ومؤسسات حقوق الإنسان ، ودفاع الغرب عن حقوق الإنسان ،

وصلة حقوق الإنسان بالإنسان المسلم ، وبكرامة الإنسان فى الإسلام ، والإصلاح الإسلامى . وفى النهاية يتحدث المؤلف عن حقوق الإنسان فى المستقبل .

وسنحاول هنا أن نلقى نظرة سريعة على أهم قضايا الكتاب متوخين فى ذلك موضوعية العرض ، مع مناقشة الآراء المطروحة فى الكتاب مناقشة علمية بعيدة عن الانفعال والعاطفة . فالخدمة المثلى التى يمكن أن تقدم للإسلام فى عصرنا الحاضر هى الالتزام بالأسلوب العلمى فى النقاش فى كل ما يتعلق بالإسلام من قضايا مثارة على الصعيدين المحلى والعالمى ونحن على يقين من أن الإسلام لا يخشى عليه من أية تيارات أيا كان مصدرها ، وأيا كان وزنها ، طالما وجد هذا الدين من أتباعه من يفهمه فهما جيداً فى أصوله وغاياته ، ويدرك أهدافه إدراكاً واعياً بوصفه دينا الانسانية يسع الإنسان فى كل زمان ومكان .

وقبل الدخول فى تفاصيل الموضوع نود أن نمهد لذلك بكلمة عن منهج الدراسة .

٣ — منهج الدراسة :

دراسة بسام طيبى لموضوع حقوق الإنسان فى الإسلام هى دراسة اجتماعية تتخذ المنهج المطبق فى علم الاجتماع لدراسة الظواهر الاجتماعية المختلفة ، وهذا يعنى دراسة الإسلام من خلال التاريخ ومن خلال ما هو قائم بالفعل فى مجتمعات المسلمين . والكثير من الدراسات تتعامل مع الإسلام أيضاً على هذا النحو . ومن هنا تخلص إلى الحكم على الإسلام من واقع ما عليه المسلمون وما يصدر عنهم من سلوكيات .

وفى هذا الصدد يقول المؤلف : إن هناك منهجين مختلفين لدراسة

الموضوع : فالمرء يستطيع أن يقترب من الإسلام إما بدراسة النصوص (القرآن والسنة)، أو بتحليل واقع المجتمعات الإسلامية. وعلماء الاجتماع يدرسون الإسلام مثل أى دين آخر بوصفه واقعاً اجتماعيا — أما علماء الإسلاميات التقليديون — كما يقول — فإنهم يلجئون إلى التحليل اللغوى للنصوص الدينية، ويحاولون قراءة سلوك المسلمين من خلال التعاليم والتكاليف المتضمنة فى هذه النصوص . وهذا يعنى التسليم بأن النص الموحى به فوق الزمان والمكان، وأنه فى دلالته لا يتغير بتغير الوقائع المحكومة بالشروط التاريخية والاجتماعية. وبذلك يرسم علماء الإسلاميات صورة «إنسان مسلم» ليس لها ما يطابقها فى عالم الواقع .

ويرى المؤلف أنه لا يمكن فهم عقيدة المسلمين وفهم نظرتهم إلى العالم والحكم عليها إلا على أســـاس من التحليل التاريخى والاجتماعى . وهذا هو المنهج الذى يسير عليه المؤلف فى كتابه . فكل مشكلات الإسلام المعاصر يمكن فهمها من خلال السياق التاريخى . ورجوع المسلمين الدائم إلى النصوص الدينية يحدث فى وعيهم دون أى اعتبار للسياقات التاريخية، فى حين أن الواقع يبين لنا أن هذا الرجوع يرتبط دائماً بهذه السياقات .

والمنهج فى أى دراسة ذو أهمية بالغة إذ تنبنى عليه النتائج التى يتوصل إليها الباحث . فإن كان المنهج سليما أدى إلى التوصل إلى نتائج سليمة ، أما إذا كان منهجاً خاطئاً أو غير ملائم فإنه يؤدى بالتالى إلى نتائج غير سليمة . وهناك مناهج عديدة تستخدم فى العلوم المختلفة ، وتختلف من علم إلى علم حسب طبيعة كل علم . وقد يستخدم الباحث أكثر من منهج لدراسة موضوع واحد إذا كان ذلك ضروريا لاستيفاء جوانب البحث فى الموضوع .

وقد اقتصر بسام طيبى فى دراسته لموضوع حقوق الإنسان فى

الإسلام على تطبيق منهج التحليل التاريخى والاجتماعى ولم يلتفت إلى العودة إلى النصوص الإسلامية وتحليلها معتبراً ذلك منهجاً تقليدياً غير مناسب لدراسة الموضوع . وقد أدى به ذلك إلى خلط كثير بين الإسلام كدين وبين ظواهر سلبية عرفها تاريخ المسلمين كما عرفها تاريخ أى أمة أخرى فى السابق أو اللاحق . ومن هنا رأيناه يذهب إلى الإعتقاد بأن هناك توتراً بين الإسلام وحقوق الإنسان، وأن الإسلام لا يشتمل على تصور لحقوق الإنسان بالمعنى الذى يعرفه الغرب فى العصر الحديث ، أى بمعنى الحقوق الفردية للإنسان ، وأن ما يعرفه المسلمون من حقوق هى حقوق لله بمعنى واجبات أو فرائض فرضها الله على الإنسان ، وغير ذلك من دعاوى سوف نناقشها فى حينها .

وهناك ملاحظة هامة لبسام طيبى تتمثل فى تأكيده على ضرورة وجود نظام مؤسسى يرتكز على الشرعية القانونية يضمن صيانة وحماية حقوق الإنسان ، وهذا يعنى ضرورة الربط بين الحق وضمانة تحقيقه . ولكن بسام طيبى ينطلق من هذه الملاحظة — التى نوافقه عليها — إلى رفض العودة إلى الشريعة الإسلامية بوصفها تمثل تلك الضمانة المطلوبة لحماية حقوق الإنسان ، كما يرفض أن يكون نظام الشورى فى الإسلام محققاً للديمقراطية بالمعنى الذى يعرفه العالم الغربى .

ونحن فى الوقت الذى لا نريد فيه أن نقلل من أهمية المنهج المطبق فى علم الإجتماع لدراسة الأديان والذى استخدمه المؤلف فى دراسته ، نرى — بصفة عامة — أنه منهج غير كاف فى دراسة الإسلام ، فالدين هو أولا وقبل كل شىء يعبر عن علاقة حميمة بين المتدين وربه، وهذه العلاقة لا يمكن أن يسبر غورها منهج يدرس الظاهرة من السطح الخارجى فقط . وهذا يعنى أن التعامل العلمى مع الدين يختلف عن التعامل مع أى شىء دنيوى آخر ، وفضلا عن ذلك لا يمكن فى دراسة الدين الفصل بين الوقائع الدينية

والنص الدينى ، فالرجوع إلى النص الدينى وفهمه أمر ضرورى لمعرفة مدى ابتعاد أواقتراب الوقائع الدينية من النماذج القيمية التى تشتمل عليها النصوص . والإنسان — بوصفه إنسانا — لا يمكن أن يستغنى عن المثل فى حياته ، سواء كانت مثلا دينية أو أخلاقية.

ومن هنا نرى أن دراسة الوقائع الدينية تتطلب ليس فقط التحليل التاريخى والاجتماعى ، بل تتطلب أيضـــاً بالإضافة إلى ذلك ضرورة الرجوع إلى النصوص التى تمثل الخلفية الفكرية للسلوك الإنسانى ، ومن خلال هذا الرجوع يمكن تصحيح المسار وتقويم السلوك ، وهذه العودة إلى النصوص ليست « أصولية » بالمعنى السلبى الشائع الآن على الساحة الفكرية والإعلامية ، ولكنها عودة إلى الكشف عن النماذج الهادية والمقومة لسلوك المسلمين والتى تمثل الجـــذور العميقة للهوية الإسلامية .

ولا يفوتنا هنا أن نشير إلى أنه لم يغب عن ذهن علماء المسلمين مدى أهمية العوامل التاريخية والاجتماعية . ويتضح ذلك من أنهم كانوا يذهبون إلى القول بأن الفتوى تتغير بتغير الظروف والأحوال والأعراف السائدة .

* * *

٤ — الشريعة وحقوق الإنسان :

الدعوى الرئيسية لمؤلف كتاب (فى ظل الله) تقول : « إن ثقافة حقوق الإنسان (كما يعرفها العالم الغربى) — وليس الشريعة الإسلامية — هى التى يمكن أن تساعد المسلمين على الاندماج فى مجتمع عالمى ديمقراطى يشمل كل الحضارات » .

ويرى أن المحاولات التى يبذلها بعض المؤلفين المسلمين فى عصرنا الحاضر لتأسيس الحكم السياسى فى الإسلام على قواعد من الشريعة وبيان أن مبدأ الشورى الإسلامى الوارد فى قوله تعالى (وشاورهم فى الأمر)[1] يعتبر أساس النظام الديمقراطى — تعـــد محاولات لا جدوى منها . فالمؤلف يجد من الصعب عليه أن يرى فى هذه الآية أول إعلان للديمقراطية فى تاريخ الإنسانية.

والواقع أن مفهوم الشريعة فى أوربا وحتى فى بعض البلاد الإسلامية قد أصابه الكثير من التشويه ، واختلط فى الأذهان بمفاهيم ومقولات غريبة عن الشريعة. ويلمس المرء ذلك لدى الغربيين حينما يرد هذا المفهوم فى النقاش. فرد الفعل يكون فى الغالب سلبيا رافضاً لهذا المفهوم لما ارتبط به فى الأذهان من صبغة سلبية .

إن الشريعة ليست سيفاً مصلتاً على رقاب العباد ، وليست مضادة لحقوق الإنسان، بل إن مقاصد الشريعة الإسلامية منذ كانت تتمثل فى قيام مصالح الناس فى الدين والدنيا معاً ، وقد روعى فى كل حكم منها إما حفظ شىء من الضروريات الخمسة (الدين والنفس والعقل والنسل والمال) التى هى أسس العمران المرعية فى كل ملة ، وإما حفظ شىء من الحاجيات كأنواع المعاملات ، وإما حفظ شىء من التحسينات التى ترجع إلى مكارم الأخلاق ، وإما تكميل نوع من الأنواع الثلاثة بما يعين على تحققه[2] .

وحفظ هذه الأنواع الثلاثة المشار إليها يعنى حمايتها من أى اعتداء عليها ، وهذه الحماية حق لكل فرد ، فهى إذن تمثل حقوقاً للإنسان بكل

---

(١) سورة آل عمران ١٥٩

(٢) الموافقات فى أصول الشريعة للإمام أبى اسحق الشاطبى جـ ٢ ص ٨ وما بعدها دار المعرفة بيروت .

ماتحمل هذه الكلمة من معنى ومن هنا كانت أساس العمران فى كل ملة ، وهذا يعنى أنها حقوق عامة وطبيعية للإنسان فى كل زمان ومكان. وترتكز هذه الضروريات وما يتبعها على ما قرره الإسلام من مبدأ المساواة بين الناس جميعاً بصرف النظر عن أجناسهم وألوانهم ومعتقداتهم ، فلا فضل لأحد على آخر إلا بما يقدمه من عمل صالح وخير للناس ، كما ترتكز أيضا على مبدأ الحرية ، فكل إنسان حر فى اختياره حتى فى قضية الإيمان والكفر « فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر »(١) .

فحق كل فرد فى المساواة وحقه فى الحرية أمر لاجدال فيه فى الإسلام. فليست هناك مسئولية بدون حرية ، وكل إنسان مسئول عن عمله إن خيراً فخير وإن شراً فشر ، والإسلام إذ يؤكد على هذه المبادىء فإنه يضع الضوابط المنظمة لممارسة هذه الحقوق منعاً للفوضى وتجنباً للإباحية وهذا ما تفعله كل أمة تريد الخير لأبنائها .

فمن الظلم إذن للإسلام أن يقال إنه لايعرف الحقوق الفردية للإنسان ، ومن الظلم للشريعة أن تتهم بأنها تمثل عقبة فى طريق حقوق الإنسان . وعلى من يتحدثون عن الشريعة أن يدرسوها جيداً قبل الحكم عليها. صحيح أن هناك من بين أبناء المسلمين من يسيئون إلى الشريعة الإسلامية إساءة بالغة باستخدامها فى تحقيق أغراض لا صلة لها بالشريعة ، أو يفسرونها تفسيرات تنحرف بها عن مقاصدها التى أشرنا إليها .

ولكن الشريعة أكرم من أن تسىء إلى الإنسان الذى هو أشرف مخلوقات الله فى هذا العالم ، فالشريعة لاهدف لها إلا مصلحة الإنسان ، ومن يقول غير ذلك فإنما يكشف عن جهل فاضح بالشريعة الإسلامية .

---

(١) سورة الكهف ٢٩ .

ويعترف مؤلف كتاب (فى ظل الله) بأن الإسلام يعد دين السماحة وأن القرآن يدعو إلى الحرية الدينية ، غير أن الأصوليين ينتهجون نهجاً آخر مضاداً لذلك .

أما بالنسبة للمسلمين الذين يعيشون فى أوربا فإنهم — كما يقول — يمكن أن يكونوا قنطرة للسلام بين الشرق والغرب إذا عملوا من مهجرهم الأوربى على أن يكونوا روادا للديمقراطية وحقوق الإنسان فى بلادهم. ونضيف أن فى وسعهم أن يعملوا على تحسين صورة الإسلام فى الغرب من خلال سلوكهم الذى ينبغى أن يكون نابعاً من سماحة الإسلام ودعوته إلى الخير لكل الناس .

ونحن نتفق مع المؤلف تماماً فى دعوته إلى ضرورة وجود قوانين ومؤسسات تضمن حقوق الإنسان وتسهر على تطبيقها .

٥ — حقوق الإنسان الإسلامية :

يذهب بسام طيبى إلى القول بأنه طبقا لوجهة النظر الغربية فإن حقوق الإنسان تعد حقوقاً طبيعية لكل إنسان ، فهى حقوق عامة وشاملة ، أما المسلمون فإنهم يتحدثون على النقيض من ذلك عن حقوق لاتصدق إلا على المسلمين . وينقل عن محمد أركون قوله : إن حقوق الإنسان التى أعلنتها الأمم المتحدة ، وحقوق الإنسان طبقا للقانون الدولى ، نابعة من الغرب ، ولهذا فهى غريبة عن الإسلام ، فالإسلام يفسر دائماً حقوق الإنسان على أنها حقوق منحها الله للإنسان .

ويقول المؤلف أيضا إن السؤال الذى يطرح نفسه هو : هل يتفق المفهوم الغربى لحقوق الإنسان — الذى يعنى أنها حقوق طبيعية وليست منحة من الله — مع الإسلام ؟

ونحن من جانبنا نتساءل : ما الفرق بين أن نقول إن حقوق الإنسان حقوق طبيعية وأن نقول إنها منحة من الله ؟ إن الخلاف هنا لا يعدو أن يكون خلافا لفظياً ، فإذا كان الله قد خلق الإنسان فإنه هو الذى منحه العقل والحرية وبقية الحقوق ، ولكن إذا قيل بأن الإنسان غير مخلوق لله بل جاء نتيجة صدفة عمياء ، وأنه قد قذف به إلى هذا الوجود ، وأنه بكفاحه استطاع أن ينتزع حقوقه انتزاعا فهذه قضية أخرى . ولسنا نعتقد أن الغربيين الداعين لحقوق الإنسان ينفضون أيديهم تماماً من دينهم الذى يقول بخلق الله للإنسان .

أما أن المسلمين يتحدثون عن حقوق الإنسان لا تصدق إلا عليهم فقط فهذا ليس صحيحا . فدين المسلمين قد أعلن المساواة التامة بين كل بنى البشر حين أشار إلى أنهم جميعا قد خلقوا من « نفس واحدة »[1] ، وأن الناس جميعا سواء لا فضل لأحد على آخر إلا بما يقدمه من عمل صالح وخير للناس . وهذا ينطبق على المسلمين كما ينطبق على غيرهم ، ألم يقل القرآن الكريم : ﴿ إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحا فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴾[2] . كما أنه ترك الفصل بين الناس المختلفين فى عقائدهم إلى يوم القيامة حين قال : ﴿ إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابئين والنصارى والمجوس والذين أشركوا إن الله يفصل بينهم يوم القيامة ﴾[3] .

ونود هنا أيضا أن نتساءل : هل صحيح أن الغربيين يعدون حقوق الإنسان حقوقا طبيعية وشاملة تصدق على كل الناس ؟ إذا كان الأمر

(١) سورة النساء ١ (٢) سورة البقرة ٦٢
(٣) سورة الحج ١٧

كذلك فكيف يمكن تفسير موقفهم الشائن إزاء انتهاكات حقوق الإنسان فى البوسنة والشيشان وغيرهما من مناطق المسلمين فى العالم .

إن هذا التساؤل ليس فى حاجة إلى جواب . فصمت العالم الحر المتحضر وعدم تحركه لوقف هذه المجازر يغنى عن كل جواب . ونحن نحمد للمؤلف إدانته الحاسمة لهذا الموقف الغربى غير المفهوم .

ويذهب المؤلف إلى القول بأنه صحيح أن المسلمين لديهم أيضا مفهوم للإنسانية ولكنه مشروط بسيادة الإسلام ، وهذا يعنى أنه مفهوم بعيد عن التنوع الذى يعنى تعددية المجتمعات الإنسانية بحيث يشكل مجتمع المسلمين واحدا فقط من بين المجتمعات الكثيرة فى العالم التى يجب أن يعترف كل منها بالآخر على قدم المساواة مع الرغبة فى التعايش فى سلام معها .

وهذا الكلام غير صحيح ، فالقرآن الكريم صريح وواضح فى الاعتراف بوجود مجتمعات وشعوب كثيرة ، وفى الوقت نفسه يدعو القرآن إلى ضرورة البحث عن السبل الكفيلة بتعاون هذه الشعوب فيما بينها .

ومن هنا يقول القرآن الكريم : ﴿ يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ﴾[1] .

ويقول أيضا : ﴿ ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك ﴾[2] .

وقد حث القرآن المسلمين على التعايش فى سلام ووئام مع كل الشعوب طالما أن هذه الشعوب لا تعتدى على المسلمين . وفى ذلك يقول القرآن :

(١) سورة الحجرات آية ١٣
(٢) سورة هود آية ١١٨ — ١١٩

﴿ لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين ﴾[1].

ويعيب المؤلف على علماء المسلمين عدم اهتمامهم بالبعد التاريخى للدين وبالدين كنظام حضارى ، ويرى أن النقاش الإسلامى حول حقوق الإنسان كان ولايزال نقاشا يدور على مستوى معيارى ودفاعى. ومن هنا فإن المفكرين المسلمين — على الأقل فى الوقت الراهن — ليسوا فى وضع يسمح لهم بالاسهام فى ترسيخ تقاليد إسلامية لحقوق الإنسان.

ولعل المؤلفين المسلمين فى موضوع حقوق الإنسان يأخذون هذا النقد مأخذ الجد ، وإن كنت أعتقد أنه لاينطق إلا على البعض منهم فقط، وأنه لايجوز تعميمه على الجميع .

٦ — مبدأ الذاتية وحقوق الإنسان :

النقطة التى يلح عليها بسام طيبى مؤلف كتاب (فى ظل الله) هى إصراره على أن الإسلام لايعرف للإنسان حقوقاً فردية بوصفها حقوقا إزاء الدولة والمجتمع : فالأفراد ينتمون إلى الأمة بوصفهم يمثلون جزءا عضويا من مجموع ، وليس بوصفهم أفرادا أحراراً ، فى حين أن المفهوم الحديث لحقوق الإنسان يرتكز على المثل التى نادى بها التنوير الأوربى والذى ينظر إلى الإنسان بوصفه ذاتا مستقلة ، الأمر الذى يعنى أن الإنسان هو سيد مصيره ، وهذا هو مضمون مبدأ الذاتية ، والأساس الراسخ لما أعلنته الثورة الفرنسية عام ١٧٨٩ من حقوق للإنسان بوصفها حقوقا لكل الإنسانية ، وهذا أيضا هو الشأن بالنسبة لإعلان حقوق الإنسان الصادر عن الأمم المتحدة عام ١٩٤٨ م ، أما المسلمون فإنهم — كما يقول — يتحدثون عن حقوق للمسلمين فقط .

(١) سورة الممتحنة آية ٨

ويشير بسام طيبى إلى أن غير الأوربيين الذين يريدون الأخذ بالمواريث الفرنسية لحقوق الإنسان تنقصهم الأسس الداعمة لذلك مثل التنوير والعلمانية والرأى العام الذى يمد هذه الإنجازات بشريان الحياة .

وإدخال المفهوم العالمى — أى المفهوم الغربى — لحقوق الإنسان إلى العالم الإسلامى يتوقف — فى نظره — على ضرورة تغيير الصورة الكونية للعالم فى الإسلام . فطالما يظل المسلمون يفهمون العالم بوصفه كونا موحدا محكوما من الله وليس فيه للفرد — بوصفه ذاتا مستقلة — إرادة ، فإن محاولة الإصلاح — بالمعنى الذى عرفه عصر التنوير — تعد أمرا مستحيلا . ومادام المسلمون يعتبرون أنفسهم خير أمة فإن عليهم أن يتغلبوا على صعوبة كبيرة إذا أرادوا أن يتعلموا من غير المسلمين .

ونحن وإن كنا قد أشرنا قبل ذلك إلى قضية الحقوق الفردية للإنسان فى الإسلام إلا أن الأمر يحتاج إلى مزيد من الإيضاح . فكلام المؤلف يذكرنا بالأنظمة الشمولية التى لايتمتع الفرد فيها بأهمية خاصة ، فهو مجرد ترس فى ماكينة ، أى أنه بدون هذه الماكينة لايعد شيئا يذكر ، ومن الممكن التضحية به فى سبيل المجموع .

وهذا أمر لايعرفه الإسلام ولايقره لسبب بسيط وهو أن الإسلام قد جعل المسئولية فردية « كل نفس بما كسبت رهينة[1] » ، فلا يتحمل فرد من الأفراد مسئولية عمل قام به آخر حتى ولو كان هذا الآخر من أقرب الناس إليه « ولاتكسب كل نفس إلا عليها، ولاتزر وازرة وزر أخرى »[2].

(١) سورة المدثر ٣٨ .

(٢) سورة الأنعام ١٦٤ .

وإذا كانت المسئولية فردية فهذا يعنى أن هذا الفرد المسئول حر فيما يفعل ، وله مطلق الحرية فى الاختيار حتى فى قضية الإيمان والكفر «فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر»[1] فالإسلام ينظر إلى الفرد إذن بوصفه كيانا مستقلا. فهو من ناحية جزء من الأمة وجزء من الإنسانية بصفة عامة، ولكنه من ناحية أخرى كائن مستقل، حر ومسئول. ومن هنا فإن له حقوقا يجب أن تحترم كما أن عليه التزامات ينبغى الوفاء بها . وعندما يقول القرآن الكريم أن «من قتل نفساً بغير نفس أو فساد فى الأرض فكأنما قتل الناس جميعاً ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعاً[2]» فإن هذا يدل على مدى الاهتمام بالفرد بوصفه كيانا مستقلا ، ويعنى فى الوقت نفسه دعوة عامة للناس جميعاً - بصرف النظر عن أجناسهم وألوانهم ومعتقداتهم - إلى ضرورة صيانة وحماية حقوق هذا الفرد الذى يشكل الاعتداء عليه اعتداء على البشر جميعاً . وهذا يؤكد مسئولية المجتمع الإنسانى كله عن صيانة حقوق أفراده فى كل زمان ومكان . ومن هنا فإن الإسلام لايجعل الفرد فى حيرة من أمره — كما يقال — إزاء الدولة التى يقول عنها إنها قائمة على نظام جماعى رهيب . فهذه الدولة التى يتحدث عنها المؤلف فى كتابه لايعرفها الإسلام، وإن عرفها تاريخ المسلمين فى بعض الفترات . إن الدولة التى يعرفها الإسلام هى الدولة التى تصون وتحمى حقوق كل فرد فيها ، بل وكل كائن حى . ولهذا كان إحساس عمر بن الخطاب بعظم هذه المسئولية إحساساً لا حد له لدرجة جعلته يقول : «والله لو عثرت بغلة فى العراق لكان عمر مسئولا عنها ، : لماذا لم يمهد لها الطريق» ، فما بالك بالإنسان أشرف مخلوقات الله . وإذا كان الأمر كذلك فى الإسلام — وهو كذلك

(١) سورة الكهف ٢٩ .

(٢) سورة المائدة ٣٢ .

بالفعل — فما الداعى إلى ضرورة تغيير الصورة الكونية للعالم فى الإسلام لتنسجم مع مواريث الثورة الفرنسية ؟

إن دعوة المؤلف هنا دعوة غير مفهومة . وإذا كان القرآن الكريم يعد المسلمين « خير أمة أخرجت للناس[1] » ، فإن ذلك يتوقف على عدد من الشروط الهامة التى يجب تحقيقها حتى يكونوا بالفعل خير أمة ، وقد نصت الآية ذاتها التى ورد فيها هذا الوصف على هذه الشروط وهى : « تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله » وهى عناصر ليس تحقيقها بالأمر الهين . فالإيمان مثلا ليس مجرد كلام يقال ولكنه ما وقر فى القلب وصدقه العمل . وهذا يعنى أن يصل المسلمون إلى درجة المثالية فى أقوالهم وأفعالهم حتى يكونوا جديرين بأن يوصفوا بأنهم خير أمة . وحتى لو حدث ذلك فإن هذا لا يشكل عائقا أمامهم يعوقهم عن التعلم من الآخرين . ألم يقل نبى الإسلام عليه الصلاة والسلام : « الحكمة ضالة المؤمن أنى وجدها أخذها[2] » ؟ ومن المأثورات الإسلامية المعروفة «اطلبوا العلم ولو فى الصين » أى حتى ولو كان فى أبعد مكان فى الدنيا ، وأيضاً حتى لو كان فى يد من لا يدينون بدينكم .

إن مؤلف كتاب (فى ظل الله) فى حاجة ماسة إلى إعادة النظر فى الكثير من مقولاته المبنية على أسس واهية لا تثبت أمام النقد العلمى السليم .

* * *

(١) سورة آل عمران ١١٠ .

(٢) رواه الترمذى وابن ماجة .

٧ — الحرية والمساواة فى الإسلام:

يلاحظ بسام طيبى مؤلف كتاب (فى ظل الله) عدة ملاحظات على مايدور من نقاش حول حقوق الإنسان فى الشرق الإسلامى نجملها فيما يلى :

١ — غياب الحرية الدينية وهذا يعنى غياب التسامح بصفة عامة .

٢ — غياب المساواة بين الرجل والمرأة فى كل مجالات الحياة .

٣ — اضطهاد الأقليات سواء كانت أقليات عرقية مثل الأكراد والبربر أو أقليات دينية كما هو الشأن فى جنوب السودان .

أما عن الملاحظة الأولى فنود أن نشير إلى أن المؤلف نفسه يعترف بأن القرآن الكريم يقر الحرية الدينية ويقر التسامح ويدعو إليه . ومن هنا فإن ملاحظة المؤلف هنا لاتنسحب إلا على سلوكيات فى بعض المجتمعات الإسلامية لايتحمل الإسلام وزرها . فالإسلام قد قرر فى هذا الصدد مبادىء هامة أولها : عدم إرغام أحد على ترك دينه من أجل اعتناق الإسلام . ومن هنا رأينا عمر بن الخطاب يعطى — فى وثيقة هامة — لأهل بيت المقدس الأمان « لأنفسهم ولكنائسهم وصلبانهم ، لا يكرهون على دينهم ولا يضار أحد منهم » . وثانيها : حرية المناقشات الدينية والجدال مع أصحاب الديانات الأخرى « بالتى هى أحسن » .

وثالثها : الدعوة إلى النظر والتفكير ورفض كل مالايؤيده علم ولايعززه دليل « قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين » ، وهذا يعنى نشر الدين عن طريق الاقناع بالحكمة والموعظة الحسنة[1] .

---

(١) راجع : حقوق الإنسان فى الإسلام للدكتور على عبد الواحد وافى ص١٣٥ وما بعدها — من مطبوعات وزارة الأوقاف (دون تاريخ).

أما عن الملاحظة الثانية الخاصة بغياب المساواة بين الرجل والمرأة فى كل مجالات الحياة ، فإن من المعروف أن الإسلام قد قضى على مبدأ التفرقة بين الرجل والمرأة فى القيمة الإنسانية المشتركة ، وقضى على مبدأ التفرقة بينهما أمام القانون وفى الحقوق العامة ، وجعل المرأة مساوية للرجل فى هذه الشئون وأمام الله : « فاستجاب لهم ربهم أنى لا أضيع عمل عامل منكم من من ذكر أو أنثى بعضكم من بعض »[1] . أما الأمور التى فرق فيها الإسلام بين الرجل والمرأة فانها ترجع إما إلى طبيعة كل منهما وإما إلى ما يقع على عاتق الرجل من التزامات مالية أعفيت المرأة منها . وماعدا ذلك « فالنساء شقائق الرجال »[2] لهن مثل الذى عليهن بالمعروف كما جاء فى الحديث الشريف . وإذا كانت بعض المجتمعات الإسلامية على مر التاريخ الإسلامى قد وضعت الكثير من العراقيل أمام المرأة نتيجة عادات وتقاليد لها ظروفها الاجتماعية والاقتصادية ، فإن تلك أوضاع ينبغى أن تتغير لتنسجم مع حقوق المرأة التى شرعها الإسلام .

أما عن الملاحظة الأخيرة حول اضطهاد الأقليات العرقية أو الدينية فإن موقف الإسلام فى هذا الصدد واضح لايحتمل التأويل ، وهو موقف رافض لكل شكل من أشكال الاضطهاد للانسان فى أى زمان وفى أى مكان .

فالناس جميعاً قد خلقوا من نفس واحدة بنص القرآن . كما أن تكريم الله للانسان هو تكريم لكل بنى آدم بنص القرآن أيضاً . وهذا يعنى أنه لا فضل لفرد على آخر إلا بالتقوى وبما يقدمه من عمل صالح وخير

---

(١) سورة آل عمران ١٩٥

(٢) رواه الترمذى وأبو داود والإمام أحمد (راجع فيض القدير للمناوى ج٢ ص٥٦٢ — بيروت ١٩٧٢ .

الناس . فالناس جميعاً « سواسية كأسنان المشط » . ومن هنا عاقب عمر ابن الخطاب ابن والى مصر لاعتدائه بالضرب على شاب من عامة المصريين وأطلق قولته المشهورة : « متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً »[1] .

ولا ينسحب ذلك على المسلمين فيما بينهم فقط ، بل إن هذه المساواة حق مقرر لغير المسلمين أيضاً . وقد تقررت فى ذلك قاعدة إسلامية عامة وهى : « لهم ما لنا وعليهم ما علينا » أى لهم ما لنا من حقوق وعليهم ما علينا من واجبات .

وقد قرر القرآن مبدأ التعايش بين جميع الطوائف على أساس من العدل والرحمة والمعاملة الحسنة : « لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين »[2] .

والمقام هنا لا يحتمل المزيد من التفصيل فى بيان موقف الإسلام حول الملاحظات التى أوردها بسام طيبى . ولكننا نكتفى بهذه الاشارات السريعة . وفى الوقت نفسه لا نريد أن نبرىء المجتمعات الإسلامية من التجاوزات التى ترجع فى أساسها إلى جوانب سياسية لا صلة لها بالدين . ومن هنا فإنه لا ضير على الاطلاق من نقد السلبيات فى العالم الإسلامى ، فهذا أمر مطلوب من أجل البحث عن الحلول المناسبة للعديد من المشكلات التى يواجهها العالم الإسلامى . ولكن البحث عن الحلول لا يجوز له أن يتجاهل المواقف الأساسية للإسلام . فتجلية هذه المواقف وتوضيحها

(١) راجع : أخبار عمر للأستاذ على الطنطاوى وآخرين ص ١٨٢ وما بعدها — دمشق ١٩٥٩

(٢) سورة الممتحنة ٨

على وجهها الصحيح على المستوى النظرى والتطبيقى سيبين أن ما قرره الإسلام من مبادىء كفيل بتحقيق أقصى ما يطمح إليه الإنسان من حق فى الحرية والمساواة وإقامة مجتمع سليم تتحقق فيه العدالة ويسوده السلام . ومن أجل ذلك نعتقد أنه لا يكفى أن يتعمق المرء فى دراسة واقع المجتمعات الإسلامية وإنما ينبغى عليه أن يتعمق أيضاً فى دراسة الإسلام دراسة متأنية ، وبذلك يجمع بين الحسنيين ، ويستطيع أن يسهم بنصيب فى إصلاح ما أفسده الدهر فى المجتمعات الإسلامية بصفة خاصة من ناحية ، وفى المجتمع الإنسانى بصفة عامة من ناحية أخرى .

• • •

٨ — النقد وخلط الأوراق :

فى الصفحات السابقة عرضنا أهم القضايا التى اشتمل عليها كتاب (فى ظل الله) لبسام طيبى حول الإسلام وحقوق الإنسان . وقد ناقشنا — حسبما سمح المقام — هذه القضايا مناقشة هادئة موضحين موقف الإسلام من قضية حقوق الإنسان وما يتصل بها من قضايا أخرى .

وفى ختام حديثنا نود أن نؤكد أن النقد الذى يدور حول القضايا الإسلامية — وعلى رأسها فى عصرنا الحاضر قضية حقوق الإنسان — له دور أساسى رائد لا ينبغى الاستهانة به أو التقليل من شأنه . فالظروف التى يمر بها العالم الإسلامى الآن تتطلب بإلحاح الكشف عن العلل التى يعانى منها من أجل البحث عن الحلول المناسبة للمشكلات التى تحيط به من كل جانب . وهذا يعنى أن النقد ليس هدفا فى ذاته ، وإنما هو وسيلة لبلوغ الهدف المطلوب . والهدف هنا هو تنشيط الفكر الإسلامى وتجديده ودفع مسيرته إلى الأمام حتى يكون قادراً على مواجهة متطلبات

الحياة المعاصرة ، وتلبية حاجات الأمة فى التقدم والازدهار مع المحافظة فى الوقت نفسه على هوية المجتمعات الإسلامية وعدم المساس بالمعالم الأساسية لشخصيتها .

ونحن نسلم بأن مؤلف كتاب (فى ظل الله) يريد من وراء كتاباته النقدية أن يرى أمامه عالما إسلاميا متقدما فى جميع المجالات ، ونحن نشاركه فى هذا الأمل . ومن هنا فلسنا نسيء الظن به أو بأمثاله ، ولا نحجر على فكر أحد . لحق الاجتهاد فى قضايا الأمة حق لا نزاع فيه للقادرين من أبنائها ، بل يعد ضريبة يلزم على كل قادر عليها الوفاء بها من أجل خير الأمة .

ولكن النقد شيء وخلط الأوراق شيء آخر . فالمؤلف للأسف غالبا ما يخلط بين الإسلام والسلوك السلبى لبعض طوائف المسلمين . وبدلا من أن يتجه النقد إلى هذا السلوك السلبى من أجل تقويمه نجده غالبا ما ينسحب على الإسلام ذاته ، وتصور المؤلف للشريعة الإسلامية تصور مخيف لا يختلف عن تصور وسائل الاعلام الغربية لها .

وحتى لا يتهمنا أحد بأننا نتجنى على المؤلف فإننا نود أن نعرف القارىء الكريم بوجهة نظر غربية حول كتاب بسام طيبى . فقد نشرت صحيفة Die Zeit — وهى صحيفة أسبوعية ألمانية لها سمعتها الطيبة — فى ٩٤/١٠/٧ مقالا للأستاذة بترا كابرت Petra Kappert الأستاذة بجامعة هامبورج حول كتاب بسام طيبى . وقد لاحظت الكاتبة فى مقالها أن بسام طيبى لا يعنى كثيراً بالتفرقة بين الأصولية الإسلامية والإسلام ، وهذا يؤكد ما أشرنا إليه من خلط الأوراق ، كما أشارت إلى أنه يميل إلى نظرية العالم الأمريكى صمويل هانتنجتون فى حتمية الصراع بين الحضارات . كما لاحظت أنه حين يشير إلى انفتاح العالم الغربى على التحول والقدرة على

التطور يشير فى الوقت نفسه إلى أنه يفتقد فى النطاق الإسلامى المرونة وإرادة التجديد والاستعداد للنقاش . وترى الكاتبة أن هـذا الذى يفتقده بسام طيبى موجود بالفعل فى النطاق الإسلامى أيضا بجانب كل أصوات الأصولية الإسلامية ، وأن هناك مفكرين مسلمين عديدين فى عصرنا الحاضر لهم كتابات تشتمل على المرونة الفكرية فى القضايا الإسلامية ، وأن المرء فى ألمانيا يود أن يتعرف عليهم ، ولكن بسام طيبى لا يشير إليهم — كما تقول الأستاذة كابرت — . وفضلا عن ذلك فإن بسام طيبى يعتقد أن الإسلام لا يشتمل على حقوق للإنسان وإنما يشتمل فقط على التزامات أو فرائض . وهنا تشير الأستاذة كابرت إلى ما ينقله المؤلف عن خبير حقوق الإنسان لويس هنكن Louis Henkin الأستاذ بجامعة كولومبيا حيث يرى أن نظرية حقوق الإنسان المبنية على الحق الطبيعى تعد شيئا جديداً بالنسبة لكل الأديان ، لأن الأديان توجه نظرها دائما إلى الالتزامات أو الواجبات وليس إلى الحقوق ، كما هو الشأن بالنسبة لحقوق الإنسان . وهذا يعنى أن الإسلام لا يقف وحده من بين كل الأديان بتأكيده على الفرائض فهذا شأن كل الأديان .

وقد سبق أن وضحنا أن الإسلام لا يشتمل فقط على الفرائض ، بل يشتمل أيضا على الحقوق وحقوق الإنسان على وجه الخصوص ،

وتشير الأستاذة كابرت إلى الحيرة التى يشعر بها القارىء لكتاب بسام طيبى نظراً لكثرة التكرار والتداخل والتناقضات ، ولعل ذلك يرجع إلى أن دراسة بسام طيبى قد نشأت من دراسات متفرقة فى أوقات مختلفة ما بين عام ١٩٨٨ وعام ١٩٩٣

وقبل أن ننهى حديثنا نود أن نؤكد على أن هناك جهدا كبيراً وعملا شاقا ينبغى أن يبذله المفكرون المسلمون للخروج بأمتهم من مأزق التخلف الذى يشمل جميع مجالات الحياة . ولو صحت العزائم ، وصدقت

النوايا ، وخلصت الأعمال من الشوائب ، فإن الأمل كبير فى التغيير إلى الأفضل فى مستقبل نراه قريبا ، ويراه خصوم أمتنا بعيدا . والتغيير المطلوب ينبغى أن يتم أولا فى العمق الداخلى للإنسان المسلم قبل أن يظهر أثره على أرض الواقع : « إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم »[1] .

• • •

(١) سورة الرعد ١١

الفهـــرس

البحث	الصفحة
المقدمة	٥ — ٦
بقلم : الأستاذ الدكتور عميد الكلية	
١ — مفهوم التنوير فى فكر ابن رشد	٧ — ٢٤
بقلم : أ . د . محمود حمدى زقزوق	
٢ — ابن رشد والتنوير بين الشرق والغرب	٢٥ — ٥٠
بقلم : أ . د . عبد المعطى محمد بيومى	
٣ — إعجاز القرآن فى فكر النورسى	٥١ — ٩٠
بقلم : أ . د . عبد الغفور محمود مصطفى	
٤ — مفهوم الفكر المادى	٩١ — ١٦٤
بقلم : أ . د . أحمد عبده حوده الجمل	
٥ — أضواء على حقيقة التوحيد فى فكر بديع الزمان سعيد النورسى	١٦٥ — ٢٠٤
بقلم : د / سامى عفيف حجازى	
٦ — أساليب وسائل الإعلام الصهيونية فى الكيد والعداء للإسلام والمسلمين	٢٠٥ — ٢٦٨
بقلم : د / على على شاهين	

البحث	الصفحة
٧ — اهتمام الخطاب القرآنى بقوى الإدراك الإنسانى وأثره فى الفكر الإسلامى «أسس ونماذج» بقلم : د / محمد صلاح عبده محمد	٢٦٩ — ٣٢٦
٨ — سياسة اليهود فى تدمير الأخلاق بقلم : د / مبروك محمد عبد السميع مصطفى	٣٢٧ — ٣٩٦
٩ — حقوق الإنسان بين الإسلام والغرب بقلم : أ . د . محمود حمدى زقزوق	٣٩٧ — ٤٢٠

رقم الإيداع بدار الكتب
٦١٣٣ لسنة ١٩٩٥ م